نساء ٣٠

قصة البرتو مورافيا

ترجمة : سمير حسنين

في بداية الصيف ، التقى «جياكومو» نفسه وحيدا على عكس ما توقع ، فقد ذهب عنه الاصدقاء لقضاء أجازاتهم بعيدا وبقى هو ليعيش فى دائرة حدودهـا البيت والمقهى وافكاره التى تصور له حاله اذا ماتقدم به العمر اكثر ، واصبح فى مرحلة الوداع .

كانت حياته اليومية تبدأ فى ساعة متأخرة من النهار ، ويظل يقرأ ويدخن فى الحجرة التى استأجرها باحـدى الشـوارع ، ويخرج بعـد ذلك ليحتسى قهوته فى أحـد المقاهى ، ثم يشترى الصحيفة ويلقى عليها نظرة عجلى .. ويعود مرة أخرى الى الحجرة ليعاود قراءة الصحيفة الى ان تسقط من يده ، ويروح فى النـوم ، وبعد الظهر يستيقظ ليغتسل ويرتدى ملابسه ثم يخرج الى المقهى مرة ثانية .

وذات يوم خرج «جياكومو» كعادته الى المقهى الذى كان يقع فى أحد الشوارع الكبرى بالمدينة . وجلس يرقب الناس حوله على الموائد الاخرى خارج المقهى كان معظمهم يحتسى البيرة الالمانية التى يعشقها هو .. اجمل البنات والشبان يلتقون فى هذا المـكان ، الذى يرتاده وجهاء المدينة كلهم تقريبا ، كان يرشف البيرة المثلجة وهو يرقب كل هذا ، نساء فى أبهى زينتهن والسعادة بين اصابعهن يتنقلن بين الموائد ويضحكن ويتحدثن بصوت عال .. «الجرسونات» يجـدون مشقة فى السير بالطلبات وسط هـذه الموائد المزدحمة ، وكان يسمع النكات تنطلق من هنا ومن هنـاك حوله .. والاسرار تتقدم بريتها على السنة الجالسين الذين نسوا انهم فى مكان عام .

كان يحس بأنه دخيل على هذا الجو ونظر حوله .. الى كل شىء وقد سقطت عليه ظلال الاشجار المورقة الواقعة فى ثقة وضوح ، وبعد قليل ، بدأ الناس يتفرقون والجرسونات يطوون الموائد ويرفعون الاستار الحامية لضوء الشمس وكان هو قد فرغ من احتساء زجاجة

البيرة ، وكعادته طلب الثانية . ولما غابت الشمس نهض من مجلسه ، وعاد الى حجرته .

وفي المساء عاد جياكومو الى المقهى نفسه ، وجلس يرقب نفس المشاهد تقريبا ، استمراض ومباهاه ، نفس الجو الاجتماعي الذي كان يرقبه منذ ساعات قلائل. ولكن هذه المرة على ضوء المصابيح الكهربائية وفي بطاق أصيل ، وطلب مشروبا ممزوجا بالثلج المجروش وجلس يأكله في بطء وتعاسة كما لو كان قد استؤجر ليقوم بهذه العملية ، وخلال ذلك كانت عيناه ترقبان المارة ، وأحس فجأة بنوع من البرودة الشديدة ، وبدا معها الفراغ يتسلل الى أعماقه ، حتى انه لم يستطع - في تلك اللحظة - ان يقنع نفسه بأنه سيد وحدته ، وأصيب بحالة قلق دفين جعلت قلبه يقوض ، فقد أحس بأن نهمه في شرب البيرة ، وأكل الثلج المجروش ماهو الا نوع من الخداع يخفي وراءه حقيقة آلامه ، وهي انه لايستطيع ان يفعل شيئا أكثر من هذا ، وانه لايستطيع أن يعيش حياته بعمق كما يعيشها الجالسون من حوله ، واحس بالم دفين جعله يعقد العزم على ان يخرج نفسه من هذه الدائرة المحدودة قبل أن ينتهي الصيف ، وان يتخلص من هذه الوحدة التي أصبح عبدا لها .

وفي احدى الليالي .. بينما كان عائدا الى حجرته ، بعد ان انهى جلسته المعتادة على ذلك المقهى ، جذبت عينيه اضواء حافلة مضيئة من نافذة صغيرة للمهى في نهاية الشارع ، وتذكر في تلك اللحظة ماكان يسمعه عن مثل هذه الأماكن التي تجتمع فيها النساء الباحثات عن المغامرات العاطفية ، وآثار ذلك الخاطر في نفسه رغبة في الذهاب الى ذلك المكان علة يجد احداهن يقضي معها ليلته .

وفعلا وصل الى المقهى ونزل بعض الدرجات ثم فتح بابا زجاجيا ، فالفى نفسه داخل بار شبه مظلم ، ورائحة الطباق الممزوجة بحرارة الصيف جعلت الجو في الداخل غير مستحب ! ، وخلف الأرفف المزدحمة بالزجاجات ، وقف «البارمان» بوجهه الاحمر القاني وكأنه حصان صوبة جعلت كل دمائه تتدفق الى رأسه ، ولكنه كان يتحرك آليا ، بذراعه تتوقفان على البار الزنكي ، من جهاز صنع القهوة الى صنبور الماء ، الى وعاء الزيتون والى كل متطلبات مهنته .

لم يجد جياكومو شيئا يفعله سوى أن يجلس على احد المقاعد ويطلب مشروبا ولم يكد يفعل ذلك ويحول بصره حوله ليكتشف ما بحت هذا السقف المنخفض، حتى تبين ان ما يبحث عنه ليس في البار انما في الحجرات الصغيرة التي بالمؤخرة حيث كانت كل منها تضم مقعدا يتسع لشخصين .. وكانت المقاعد جديدة ومنتبة في فجوة بالحائط ، وكلها خالية الا واحد منها حيث كانت تجلس عليه امرأتان ، لم يستطع جياكومو أن يحدد - لاول وهلة - أي نوع من النساء هما ، اذ لم تكن ملابسهما تدل على شيء كانت الاثنتان شقراوين ، احداهما أصغر سنا من الاخرى يحوالي سبع سنوات او ثمان ، شعرهما مرسل على كتفيها .. ذات عيون زرقاوين واسعتين وأنف دقيق

رشيقين ممتلئين ، لامعة شبيهة من المساحيق على وجهها الذى كان يبدو فى صحة جيدة .. كانت ترتدى «بلوزه» تكشف عن ذراعيهـــا ، بينما وضعت سترتها بجوارها .

أما المرأة الكبرى ، فكان شعرهـــا مصففا بعناية ، تضع على رأسها قبعـة تخفى جانبا من جبهتها .. عيناهـــا ملونتان ولكنهما ضيقتان ومتقاربتان ، نظراتها تبدو عميقة من تحت جفنيهـــا المتدليين اللذين يفضحان حقيقتها .. وكل شىء فى وجهها معطى بطبقات من المساحيق جعلتها تبدو لاول وهلة اجمل من رفيقتها ، لكن جمالها الصناعى هذا لم يكن متقنا رغم كل شىء .

ومن النظرة الثانية ، اختار جياكومو الصغرى ، لا لشىء ، الا لانها أقرب الى الطبيعية .

كانت المرأتان تجلسان دون حراك لاتتبادلان بينهما كلمة ، وكانت نظرات جياكومو موجهة صراحة الى ذات القبعة بينما كان ينظر الى الاخرى بطرف عينه ولمح ما أكد له انهما عاهرتان ، وهو ما حاولت المرأة الكبرى التظاهر به من عطفة رغم يديها العجوزتين الملقاتين على المائدة .. واظفارها المطلية باللون الاحمر الفاقع .

وأطلق جياكومو على صوت «البارمان» يطلب اليه قدحا آخر المشروب ، وفى الظروف العادية ماكان جياكومو ليجرؤ على سؤال الرجل عن المرأتين ، لكن بعد أن اتضحت له حقيقتهما ازداد شجاعة وسأله فى شىء من الاضطراب عنهما ..

وقبل أن يرد الرجل عليه ، أو يتوقف عن تنظيف البار قال :

ـ لا أعرف ياسيدى ، لقد كانتا هنا ليلة أمس ولكنى لم أرهما من قبل .

وتبين من لهجته فى الاجابة انهمـا من ذلك النوع من النساء الذى يبحث عنه هو فى تلك الليلة ، فنهض وقال للبارمان :

ـ آتى بكأسى الى تلك المائدة .

قال ذلك ثم انتقل الى مائدة مجاورة للمرأتين ، وجلس ومعه نفس النظرات نحوهما ، ولم تستطع الاولى ان تواجه نظراته الصريحة فارخت عينيها ، بينما رمقه ميلدها التى كانت من قبل تتجاهل نظرته غير المباشرة ، بنظرة وقحة من طرف عينيها الرمادية ، وخيل اليه أن المرأة ذات القبعـة لم توافق على نظرة زميلتها اليه . واحضر البارمان كأس جياكومو ثم انصرف تاركا الثلاثة فى خلوة تامة .

وتكلمت الصغيرة بصوت مسموع قائلة :

ـ يبدو أن صديقك الســـاذج لن يحضر .

ـ هش !

قالتها بصديق دون أن تتحرك .

ـ ولم اسكت ؟ ! انى أكره انه اذا لم يأت فانه يكون ساذجا .

ـ حسن . ولكن لم تصيحين هكذا ؟!

ذات لك دون أن تحرك وكانها تحتى أن تسقط قبعتها من رأسها .

ـ ومن الذى يصيح ؟

ـ انت .

ـ حسنا .. لن اتكلم .

ولكنها عادت فتكلمت بمرح كان شيئا لم يكن ، حتى أن جياكومو اعتقد انها تحاول جذب انتباهه ، فقالت للأخرى

ـ سيجارة من فضلك .

وكان جياكومو أسرع من المرأة الاخرى فقدم الى الصغرى السيجارة المطلوبة من علبته ، وترددت هى أولا ، لكنها عادت فأخذت العلبة كلها وناولت سيجارة لرفيقتها التى كانت حائرة بين رغبتها فى التدخين واستبقائها من تعرف الاخرى ، ثم قالت

ـ ليس من اللائق أن تأخذ سيجارة من شخص بهذه السرعة ، وقبل أن تعرفه .

وبعد أن قرأت ماركة السيجارة وصنعتها فى فمها ، وكما تفعل السيدة الراقية أومأت الى جياكومو ليشعل لها السيجارة بينما كانت الصغرى ، قد اشعلت سيجارتها بنفسها ، وبدأت تنفث الدخان من أنفها .. فاتجه جياكومو الى المرأة الكبرى وهو يقول

ـ الجو هنا حار ، أليس كذلك ؟

ويبدو أن هذه الملاحظة قد اسعدت المرأة كثيرا ، لانها اعتبرتها نوعا من الاحترام تجاهها .

ـ شجيع !

ـ قالتها فى لهجة باردة ثم سحبت نفسا من سيجارتها ونفثته وهى تمد النظر فى ماركة السيجارة وواصلت بعد ذلك كلامها :

ـ انى لاأذكر ان الجو كان سيئا هكذا أبدا .

ـ انى اتصبب عرقا من كل مكان .

ـ هكذا كان تعليق الصغرى بينما كانت تضحك وترفع يدها لتظهر تحت تحت ابطها وعندئذ ظهر صدرها ، ثم واصلت كلامها :

ـ من الصعب التنفس فى هذه القاعة .

ويبدو أن الكبرى لم ترض عن هذا العرض الذى قدمته رفيقتها ، فرمقتها بنظرة صيانية ، ولكن الصغرى لم تعبأ بذلك ونظرت الى جياكومو وقالت :

ـ هذا المكان لطيف جدا فى الشتاء ، لكن فى الصيف يستحسن أن يذهب المرء الى الاماكن المفتوحة .

ـ نعم انها افضل ، ولا سيما تلك التى بالحدائق .

فقالت الصغرى بسرعة :

ـ حيث يذهب «دانماء» .

وقاطعتها الكبرى قائلة :

ـ ماذا تعنين بكلمة «دانماء» ؟

ـ كل الوقت ..

ثم نفضت رماد سيجارتها واستطردت

ـ باستثناء هذه الليلة ، انها تنتظر صديقا .

فضحكت الصغرى وهى تقول :

ـ نوعا غريبا من الاصدقاء ، لا نعرف عنه شيئا .. حتى اسمه .

ـ اذا تقولين ؟! انه يدعى مليئى ـ قالت الكبرى ذلك دون أن تتحرك ،

فضحكت الصغرى مرة أخرى وقالت :

ـ انه اسم صاحب البيت .

فالتفتت الكبرى الى حياكومو وقالت :

ـ ان اختى تحب الضحك والتنكيت .

ـ انى لا أملك اطلاقا ، فهو ليس صديقا لها او لى ، بل انا قد عرفناه من الشارع .

والتفتت عيناها وارتعش انفهما ، وبدا صوتهما صارخا وهى تعلن هذه الحقيقة ، والتفتت الكبرى الى حياكومو الذى كان يفهم حديثهما ، وقالت :

ـ فى المرة الاولى كنا فى معهى ، وجاء الينا وسألنا نادب عما اذا كان يمكن التحدث الينا .. تماما كما فعلت انت الآن .

والتفتت الى رفيقتها وقالت :

ـ ماذا سيقول عنا هذا السيد اذا تمادينا فى هذا الكلام ؟

وظلت الصغرى تضحك وترتمى على مسند الكرسى حتى احمر وجهها من شدة الضحك ثم قالت :

ـ لقد ظن ذلك وانتهى الامر .. دعك من هذا والا لما كان قد أتى الى هنا وعلى وجهه هـــذا التصير .. أليس كذلك يامستر ... ؟ ماسمك ؟ على اية حال بالامس لم نسأل ...

ـ اسمى حياكومو .

قالها وهو فى حالة بين المرح المدروح بالتأثر واستطرد قائلا :

ـ نعم ، لقد جئت الى هنـــا ، وانا متأثر ببعض الافكار ، ولكن من الممكن أن أكون مخطئا .

ـ ابدا لست مخطئا على الاطلاق .

ثم ضحكت فسألها عن اسمها ، ولكن الكبرى تدخلت لتجيبه قائلة :

ـ ريبا ـ واختى لورى .

فضحكت الصغرى وهى تقول :

ـ ان اسمك ليس ريبا ابدا ، بل تريزا ، واسمى ليس لورى ، بل جيوفانا

ـ انا احب ريبا ولورى أكثر لانهـــا أقصر .. اعتقد أن هذا يكفى بالورى .

ـ ألا يستطيع احد أن يضحك ؟

ـ لاشىء فى الضحك ، لكن صوتك مرتفع وصوتى .

ـ انا لست كذلك .

قالتها لورى بطريقة حـدية ، كان ملحوظة رفيقتها قد مستها فى الصميم

وأراد حياكومو أن يوقف هذا النقاش فقال :

ـ وما اسمك الآخر ؟

– بيجاني .

قالت ريما ذلك ثم اسبلت جفنيها ، وارادت هي أن يرفه عنهـا بعض الشيء فقال :

– هناك مدينة في سيسيل اسمها كاتكاتي .

– لا ايها بيجاني .

– واين ولدت ؟

– نحن من فيرونا .

فقاطعتها الصغرى قائلة

– نحن أصلا من مولو ، لكنها لاتحب أن تذكر ذلك لان الاسم يذكرك بسوء القطط .

– هل تودان شيئا من الشراب ؟

فقالت الصغرى بحماس بالغ

– نعم .. شمبانيا .. شمبانيا .

– اقترح أن نذهب الى مكان آخر .

وعلى الفور التقطت الكبرى قمارها وبدأت تلبسه .. وبعض الثلاثة لمغادرة البار ، وتوجه هو ليدفع الحساب عـالة «البارمان» .

– هل ستدفع حساب ثلاثة ؟

– نعم واعطى ايضا عدة سجائر مصرية .

***

وخرج الثلاثة الى الشارع العريض ، حيث تلقى الاشجار المورقة ظلالا كثيفة على كل شيء ، واشعة القمر تعكس ظلال ثلاثتهم على اسفلت الطريق وعلى الجالسين وزرود صفراء بدت في ضوء القمر كأنها خيالات ، وسألهما جياكومو

– اين تفضلان الذهاب ؟

فأجابت الصغرى على الفور

– اى مكان نستطيع ان نشرب فيه ، فانا لم أشرب منذ فترة طويلة وعطشى كالـ ....

– ما رأيكما في سيدر بار ؟

فعارضتها الصغرى بحجة انه مكان خانق فاقترح جياكومو ان يذهبوا الى «انكوس مارتيوس» حروتوه ، وهو ملهى لايبعد كثيرا عن المكان الذي خرجوا منه وهو مرخرف بطريقة تجعله يبدو كمكان اثري ، به أعمدة ومنحيات مظلمة تمكنه من الجلوس معهما في راحة تامة ، وتأبطت الصغرى ذراعه وساروا في اتجاه المكان المقترح ، وتساءلت

– ولكن من يكون انكوس مارتيوس هذا ؟

– انه أحد ملوك روما القديمة –

وساروا على مهل في الطريق الخالي حتى وصلوا الى طاقة مفتوحة فدخلوا منها .. واسفل مجموعة من الدرجات وجدوا صخرة سوداء مهشمة ، وما ان تقدموا خطوات قليلة ، حتى أحسوا برائحة الدخان الممزوجة برائحة النبيذ تتسلل الى أنوفهم ، واصوات الناس والموسيقى تنبعث من المكان ، وفي الداخل كانت الموائد متناثرة في غير انتظام عليها الكئوس والزجاجات ، وحولها الناس ، وكان المكان في الداخل بأعمدته الرومانية الطراز يبدو كأنه

قاعة رومانية كبرى، لكنها منظورة بعض الشيء ، وصاحت لورى وهي تصفق ،

ـ مدهش ! انه بشـــــه ... مادا يسمون ذلك المكان الذي تعود المسيحيون القدماء أن يلتقوا فيه ؟

ـ الرمس أو القبو كما أعتقد .

ـ أجل ، أجل القبو .

ومر الثلاثة بين الموائد ، لم يهتم بهم أحد ، فقد كان صوتهم وهم يمرحون ، ويشربون ، مرتفعا تعكسه جدران القبو وقال جياكومو وهو يشير الى مائدة في مؤخرة القاعة

ـ تعالوا بنا الى ذلك المكان .

وساروا بين الموائد المتراصة بالقاعه الرئيسيه ، ومنها الى دهليز ضيق ذي جدران من الطوب الاحمر .. ومنه الى حجرة أصغر ، مربعة تطريقة تفوح منها رائحة التاريخ ، لوحات غير مستكملة لمشل نساء عاريات ، ومصابيح حديدية تتدلى من السقف .. وأخيرا جلسوا هو في الوسط ، وعن يساره الصغرى، وعن يمينه الكبرى ثم سألهما عما تودان شرابه فقالت لورى

ـ اى شيء حبيب جدا .

لكن أختها قالت

ـ اني افضل مشروبا معينا ، ولكن يبدو انه غير موجود هنا .

ولكن الجرسون الذي كان يقف الى جانبهم رد عليها بسرعة

ـ عندنا شانتي ابيض وأرفيتو وتشيد

ـ ماذا عندكم من اسيد الحلو ؟

ـ مارسالا ، ماسيتو ، البتيكو ..

ـ أنا بعض الاليبيكو .

واستأنف جياكومو حديثه الذي انقطع

ـ اذن انتما من مولو .

فقالت الصغرى

ـ نعم ، لكني أعيش في ميلانو ، وأختي تعيش هنا ، وبين وقت وآخر نتبادل الزيارات .

فقالت رينا انا لا تعجبني ميلانو ، فالشتاء فيها غير محتمل لدرجة أني امرض .

فقال جياكومو

ـ لماذا ؟

فأجابت وهي تتحسس صدرها

ـ لاني حساسة .

ولاحظ هو صدرها المتكامل ، لكن نظرتها العابرة من تحت جفنيها المتدليين جعلت هذا الامر يثير حب استطلاعه .

وقالت الصغرى

انها تكذب ، فهي لاتحب ميلانو ، لانها على علاقة حب هنا .

ـ وماذا يعمل هو ؟

فردت الكبرى بنفس التصنع الذي يؤكد انها من نيجاتي

ـ انه من رجال الاعمال .

وقالت الصغرى وهي تمسك انفها

كانها تسمع عنها رائحة كريهة ، انه بائع سمك .

ووصل الحرسون وفتح حيـــاكومو الزجاجة وصب لهما كأسين من النبيذ ، فقالت الصغرى :

ـ ان النبيذ جيـــد ، ثم التفتت الى حياكومو وهي تقول : وحلو أيضا .

فقـــالت الاخرى كي تؤكد حسن اختيارها : انه البيتيكو .

وصب حياكومو كأسه المملوءة دفعة واحدة في فمه ثم ملأها مرة أخرى .

وكانت المرأتان قد فرغتا من كأسيهما فأعاد الكرة حتى فرغت الزجاجـــة فواصل كلامه :

ـ واين صديقك الآن ؟

فأجابت الصغرى وهي تضحك : انه في الطريق .

وقالت الكبرى لاختها : لا تتحـــدثي عنه بهذه الطريقة ، فانت لاتعرفينـــه .

وكانت الخمـــــر قد دارت برأس حياكومو ، فقرر أن تكون الـكبرى هي ضالته ، وبحركة لاشعورية وضع يـده على ركبتيها من تحت المـائدة ، فنظرت اليه نظرة ملؤها التعالي وقالت له :

ـ ولكن من أين انت ؟

ـ من انكونا .

وبحركة خبيثة اراح طرف ثوبها .. وتقدمت يده تتحسس الى أعلا « استك الجورب » الذي كان يحز على فخذهـــا وجعله يكاد ينفجر ، ثم فك أزرار الثوب وتقدم أكثر فأحس بنعومة ملامسهـــا الداخلية الحريرية ، بينما واصلت هي حديثها ولم تحاول ابعاد يده ، وكان ما يحدث لايعنيها ، انها مدينة جميلة .

وفي تلك اللحظة كان توبهـــا قد انزاح عن ساقيها ، فصاحت الصغرى :

هل تعتقدان انني لااراكما ؟ ولكن مع ذلك استمرا .

فسحب حياكومو يده ، وبعد لحظة احس بيدهم فأعادها ثانية الى حيث كانت ولكي يكون عادلا ، وضع يده الاخرى حول خصر الصغرى ، فنظرت اليه بطرف عينيها وهي تضحك ، وكأسها ما تزال في يدها ، ومال عليهـا وقبل عنقها .. فحدقت الكبرى بيده وأعدتها ثم أسدلت ثوبها ولم تفعل ذلك لانها خجلـــة من تصرفاته مـــع الاخرى ، بل لان بعض الرواد كانوا قد مروا بجانبهم .

فسألها هو : وماذا تفعلين في ميلانو؟

فضحكت لوري وقالت : ماذا افعل ؟

وتدخلت الكبرى لترد بدلا منهـــا انها « موديل » .

وقال لوري بتان بائع : نعم لقـد تمودت ان أكون كذلك ، لـــكنني الآن افعل كما تفعلين أنت هنا .

وانزعجت الاخت الكبرى من هـــذه الاجابة فقالت :

ـ وماذا تقولين؟ هل تودين أن تنسبي الى نفسك عملا لست قادرة على اتيانه ؟

ـ وماذا تعرفين انت عن هذا العمل؟

قالت لوري بتهكم : وماذا تفعلين انت اذا سمحت لي ان أسألك .

كانت تبدو تملة بعض الشيء وهي تسأل أختها هذا السؤال -- وكانت عيناها الملونتان اللامعتان ترمشان بين لحظة وأخرى .

ـ أنا لا أعمل شيئا ، فأنا سعيدة للهو .

ـ وماذا تعرفين عن هذا الامر ؟ وعلى كل فأنا أمارس نفس العمل .

فوجهت اليها شقيقتها نظرة كالخنجر لكنها لم تتكلم ، ثم نظرت الى جياكومو وقالت محذرة :

ـ اذا شجعتها على المضي في الشرب فلن تعرف ما تفعله

وربت هو على رجل لوري وقال لها :

ـ تعالى .. تعالى .

لكنها لم تتحرك .فتشجع وارتفع يده الى أعلى بعض الشيء ، لكنها ألقت رجليها مضمومتين ، فتوغلت يده أكثر فأكثر ولم يجد أي اثر لملابس داخلية أو أي شيء من هذا القبيل ، وحدثته النعومة ، فرفعت يده شيئا فشيئا دون أن يعوقه شيء مما ترتديه الكبرى حتى وصل الى بطنها المستديرة . ولاحظ أن الفتاة عارية تماما الا من الثوب الخارجي ودون أن توقف لوري اليد الزاحفة الى جسدها ، واصلت صياحها مع رفيقتها :

ـ أنا لاأختلف معك في هذا ، لكنني لاأتظاهر بأنني أعيش مع رجل واحد ، وفي الوقت نفسه ، أغوي كل ليلة شخصا غريبا .

وحملقت الكبرى في رفيقتها تعييها الصيغتين ، من تحت قبعتها المتدلية على جبهتها ، وكررت ماقالته الصغرى ، في صوت أقل حدة ، ثم التفتت الى جياكومو قائلة :

ـ وانت ، دعك قابعا في مكانك .. ألم اقل لك لا تشجعها على الشراب ؟

وفي نفس الوقت كان جياكومو في حالة سكر شديد ، ليس بفعل الخمر فقط ، بل ومن اثر لمسه لجسد الفتاة الصغرى ، فأصبح هو عصبيا نوعا ما ، فلم يرد عليها ، بل التفت الى الصغرى وقال : مارأيك لو خرجنا . انا وانت وتركناهما هنا ؟

لكنه دهش حينما ابدت لوري ولاء غير متوقع لشقيقتها اذ قالت له :

ـ سلهـا فهي التي تقرر كل شيء حينما أكون في صيافتها .

فالتفت الى الكبرى وخفض صوته لاخشية أن تسمعه الفتاة لكن لكي لا تسمعه وهو يقول لها :

ـ مارأيك لو خرجنا من هنا .. كنت افكر في انني يحسان ادهب باحداكما .

ـ لا .. ليس بواحدة ، اما بكلتيهما ، والا فلا .

ـ ولم لا ؟

ـ لان هذا هو مانفعله دائما .

ـ وماذا افعل بامرأتين ؟

وهنا ساوره الشك في كونهما شقيقتين ، وكم تريدان كلاكما ؟

ـ عشرون الف ليرة .. عشرة آلاف لكل منا .

ـ أجل .

وسـاروا عبر الموانئ الى السرداب المقفر حيث رست خطواتهم في آن واحد وحيث كان الهواء أكثر ثقلا وتشبعـا بدخان السجائر عند ساعة وصولهم .. واحس هو بأنه قد شرب أكثر مما يجب وفي الخارج كانت الحرارة شـديدة . والهواء ساكنا ، وأضواء المصـابيح في الشارع تبدد كل الظلمات الراقدة فوق اوراق الشجر .

ـ يجب أن نجد سيارة أجرة .

قالت الكبرى ذلك وكأنها خارجة من حفل خاص فحم .. ثم ساروا الى الميدان القريب، لكنهم لم يجدوا اي اثر لسيارة اجرة ، كان هو يتوسط الاثنتين وهمـا متعلقتان به تقودانه ، ثم سألهما

ـ وأين منزلكما .

فقالت الصغرى ـ وهي تكتم الضحك

ـ تذكر قداسة البيت ؟

وذكرت الكبرى العنوان، وكان البيت في أحد الشوارع الصواحي المدينة .

ـ اذن فلتركب الأتوبيس حتى آخر الخط ، ومن هناك تركب الترام .

وفي الواقع لم يكن هناك شيء يعمل غير ماأشار به جياكومو . ولمس الخط وصل الأتوبيس في نفس اللحظة فركب الثلاثة ، وجلسوا ودفع جيـاكومو لثلاثتهم . جلست الكبرى على مقعد والاثنتان على مقعد آخر خلفها ، وحينما تحركت السيارة . قالت الصغرى بصوت عال ـ الم يكن من الأفضل أن نبحث عن فندق مناسب بدلا من قطع كل هـذه المسافة الى البيت . لكن الصادق هـا كثيرة اللغط . انا أعرف فندقا في ميلانو لايسألونك فيه أي سؤال ، حتى انهم لايطلبون تأشيرة للحجرة .. ولفت الناس تجاه جياكومو ومرافقتيه . لكن الوقت كان متأخرا ، وهم في حالة من التعب لاتمكنهم حتى من الابتسام ، واندفعت السيارة دون تعثر في الشوارع الضيقة ذات القصور الباذخة على الجانبين والتفتت الكبرى اليه وقالت له بصوت مؤكد :

ـ كم من الوقت تعتزم البقاء ؟ ان زوجتك ستفتقدك ، انهـا لاتراك كثيرا بسبب كثرة أسفارك .. أليس كذلك .

وقالت الصغرى ـ زوجته ؟ هل انت متزوج ؟

فضحك هو وامسك بيدها وقال ـ نعم متزوج لك .

لكنها سحبت يدها ، وهمست قائلة بحدة ـ حد بالك فان اختي تنظر الينا .

ـ مرحى على قداسة بيتكما .

نعم ثلاثة انخاب في قداسة البيت ـ

ونظر اليهم أغلب الركاب وفي عيونهم حب استطلاع بالغ والتفتت الـكبرى اليهما وقالت ـ ألا تستطيعان البقـاء صامتين لدقائق ؟

ـ أنا حرة في أن اتكلم وقتما أحب ـ

لقد كانت هـذه الاجابة كافية لان تعتدل المرأة الكبرى وتدير لهما ظهرها وحاولت أن تبدي عدم اكتراثها بهما على الاطلاق ، فتحت حقيبتها وأخذت تصنع المساحيق على أنفها ، وفي المرأة التي بيدها استطاع جياكومو الذي يجلس خلفها أن يلمس مدى سوء حالتهـا

النفسية من خلال حديثهما .. وتوقف الأتوبيس في نهاية الخط في ميدان مظلم ومن خلال أوراق الشجر المظلمة استطاعوا أن يروا أضواء الترام ، فقالت الكبرى وهي توسع خطواتها

ـ هذا الترام سيوصلنا .

كان الترام كامل العدد تقريبا ، لكنهم استطاعوا أن يجلسوا كما كانوا في الأتوبيس ، وبعد محطتين ركب رجل في حوالي الخمسين من عمره ذو أنف محروطي الشكل ، وشعر رمادي ، كان يرتدي جلابية سوداء وقميصا ابيض وربطة عنق سوداء ، ثم جلس بجوار ريما ، ورفع قبعته قليلا عن رأسه حيث بدت كالغطاء فوق الوعاء .

وقال جياكومو للفتاة التي بجواره

ـ متى تعودين الى ميلانو ؟

ـ ليس قبل مضي فترة من الوقت ، فانا اريد ان أتمتع هنا لان اختي تأخذني الى أحسن الأماكن .لكنني لم أذهب بعد الى مطعم رجال الاعمال، مع انني سمعت انه أفضل المطاعم .

وهنا اعتدلت اختها في جلستها ، لكنها لم تنظر اليهما .

ـ نعم انهم يقدمون فيه أفضل الأطعمة .

ـ قلت انني اود أن أمتع نفسي . . ما اسم ذلك الملهى الذي يقدمون فيه الاستعراضات الضاحكة ، وبين الفقرات تستطيع أن ترقص على الارض .

ـ الجنة .

ـ لقد زرته مرة مع رجل من الجنوب وكان كريما هذا .. ما رأيك لو ذهبنا اليه في احدى الأمسيات ؟

ـ ولم لا ؟

ـ انني معرفة بمثل هذه الاماكن .

ـ . . . . .

ـ هل ستبحث عني اذا ما حضرت الى ميلانو ؟

ـ وما عنوانك ؟

ونظرت اليه باسترحاء السكارى وقالت : ساعطيك عنواني بالضبط لتستطيع ان تأتي حينما تشاء . فانا لاأومن بقدسية البيت .

وهنا التفت الرجل ذو الجلبة السوداء ورمقهما بنظرة فاحصة . بينما كانت ريما جالسة متصلبة الاكتاف والرقبة دون أن تحركها عربات الترام ، وبعد فترة صمت واصلت الفتاة كلامها

ـ لقد أثر نبيذك على رأسي .. انه جيد كال . . .

وتوقف الترام بالمحطة فنهضت ريما دون ان تكلمهما واتجهت الى الباب ووقفت تستطرهما ، وفي نفس اللحظة مر بها الرجل ذو الجلبة السوداء ، وكما تمثل ساعة دخوله ، خلع قبعته فاحنت رأسها برقة كأنها تشكره على هذه اللفتة من الاحترام بعد ماسمعه من شقيقتها . . وسألتها لورى

ـ أنت داعية ؟ (ثم وهي تنهض) آه أهذه هي محطتنا ؟ .

ـ . . . . .

وخرجت ريما وجياكومو وتبعتهما

لوري .. وتحرك الترام وبقي الثلاثة في منتصف الميدان الامنطقتي الواسع وحولهما اشجار عالية وبواقد تنبعث منها اضواء خافتة ، وفي مواجهتهم طريق على جانبيه مصابيح الكهربائية يقود الى منطقة غير مزروعة ، حيث تقف مجموعة من المباني متناثرة الفتاة :

هل منزلنا هناك ؟ انني لم اتعرف عليه .

وانتظرت الكبرى الى أن ذهب الرجل ذو الحلة السوداء فصاحت فيها بغضب

ـ نعم .. هذا هو منزلنا ، لكنني لا اريدك ان تبقي معي .

ـ ولم ؟ ماذا حدث ؟

ـ لقد أخبرتك مرارا وتكرارا ، انك يجب أن تتصرفي بأدب في المنطقة التي اعيش فيها .. وفي الترام الذي اركبه يوميا ، لاأن تنادي هكذا ، وتتكلمي كلاما فارغا طوال الطريق .. وبهدا الصوت المرتفع

ـ وماذا قلت ؟

ـ كل واحد في الترام يعرفني ، ماذا يظنون بي ؟ هل رأيت ذلك الرجل الذي كان يجلس بجواري ؟ انه مستر بيكيو المحامي الذي يسكن نفس العمارة وفي نفس الطابق ، سوف يقول ان أختي عاهر تحضر معها الرجال الى البيت .

ـ وماذا يضيرنا ؟

ـ الامر هام بالنسبة لي ، فانا لاأحب ان يتحدث الناس .

ووقفت الصغرى منتصبة وبداها على مؤخرتها وهي تقول : انظري هنا ..

انظري هنا ، ما معنى كل هذا الصحيح ان كل مايقوله جيراننا اقل من الحقيقة ادهي وامكر .

ثم التصقت بجياكومو .

ـ حسنا .. ولكن هذه هي آخر مرة أدعوك فيها لزيارتي .

ثم ساروا قليلا صامتين ودخلت ريتا احدى العمارات الكبرى ، والتفتت نحو جيـــاكومو وقالت بهمس وهي تضع المفتاح في الباب :

استحلفك بالله ان تحافظ على الهدوء

وساروا في ردهة ذات افريز رخامي اسود على طول الارض ومجموعة مصابيح كهربائية معلقة على الجدران .. ثم دخلوا حجرة بجوار السلم ، والتفتت ريتا اليهما وهما يدخلان وقالت

ـ بهدوء ..

وبعد ان اغلقوا الباب خلفهم أضاءت مصباحا بداخل صندوق زجاجي أبيض وبدت الشقة مفروشة على أحدث الطرز في كل مكان وضعت قطع الأثاث المخروطية الشكل او المربعة .. ومصابيح كهربائية وموائد زجاجية وكراسي اسطوانية القاعدة ، وصحبت ريتا جياكومو عبر ممر ضيق وهي تقول : يجب أن نذهب الى حجرة النوم مباشرة .

كانت حجرة النوم صغيرة ، الفراش المزدوج يحتل أكبر حيز فيها ، وملاءة السرير مزينة برسوم على شكل دوائر متداخلة متعددة الالوان من الازرق الفاتح الى البنفسجي والاحمر والبني ، ومن نفس القماش صنعت أغطية الكراسي ، اما الصوان فقد كان مكونا من مجموعات

متصلة ببعضها مرآة في الوسط وقد احتل جانبا من جدران الحجر باكمله تقريبا .. ومصابيح كروية الشكل على جوانب منخفضة . وكل شيء كان نظيفا تماما .. وبرغم الوان السرير المتعددة فقد كان الجو يوحي بالكآبة والحزن ، تماما كالصادق المتواضعة الحديثة .

وخلعت ريتا قبعتها بحذر ، ووضعتها على الدولاب ، ثم دخلت الى احد الاركان وخلعت ثوبها وبقيت في سروال «فيليه» اسود وبدا لجياكومو صدرها الصامد رغم امتلاء جسمها وضخامة أردافها واستدارة ساقيها ، ولم يعرف كيف يتصرف !! لكنه تقدم منها ووضع يديه حول خصرها وحدقها اليه ، فسمحت له بتقبلها ثم قالت :

ساعد الفراش .. يمكنك ان تخلع ملابسك في الحمام اذا أردت .

ثم انحنت لتنزع ملاءة السرير .. وانزلت جواربها الحريرية فبدت آثار «رباط الجورب» الضيق على فخذيهـا ثم خلعت الملاءة النظيفة التي كانت تبدو وكأنها قد خرجت لتوها من تحت المكواة .

وبدا له أن مسألة قدسية البيت لها معنى آخر .. وخجل من أن يخلع ملابسه ويقام عاريا على هـذا السرير المزدوج .. كانت ريتا تجلس على طرف الفراش وظهرها اليه ، تخلع جواربها ، بينما كانت الصغرى في الحمام يسمع صوتها من خلال الباب نصف المفتوح ، وأحس جياكومو بحرارة الجو فسألها أن تفتح النافذة فقالت بعد أن تطفيء النور ، والا رآنا احد .

في نفس اللحظة خرجت لوري من الحمام ، ووقفت أمام المرآة .. ولاحظ هو انها تتأمل نفسها باستغراق كأنها تحدق في شيء ما ، ثم لكمت ازرار ثوبها بسرعة وترددت هنيهة قبل أن تخلعه .. وتقف عارية .. وبدا تدياها المستديران بعض الشيء متدليين .. لكن طرفيهما نافران .. ومن طريقة اهتزازهما لاحظ هو انهما هكذا بالطبيعة ، وليس بسبب السن .. ثم مرت امامه لتعلق ثوبها على احد الكراسي ، وبعدهـا توجهت الى «الجراموفون» الموضوع على منضدة في أحد الاركان وقالت : فلنسمع شيئا من الموسيقى .. وانحنت لتدير الجهاز .. ونظرت الى جياكومو من خلال شعرها المسترسـل نظرة ملؤها الاحسـاس بالنشـوة .. وفي نفس الوقت لاحظ جياكومو تدبيها اللذين لم يتحركا اطلاقا رغم اهتزاز جسدها كله وآثار ذلك الامر دهشته .

وانبعثت موسيقى شعبية ، فتقدمت منه وطلبت اليه أن يراقصها ، ثم أخذا يدوران على الانغام التي ارتفعت اكثر وهنا انطلق صوت ريتا تطلب منهمـا ايقاف الجهاز .. وبدلا من ذلك أخذ جياكومو رفيقته وخرجا الى الردهة .. وكان جوزه قد زال ، وتشجع لمواجهـة المغامرة ، ولم يكن هناك شيء يعملـه سوى أن يختم الموقف بالنهاية المنطقية .

وبمجرد ان اصبحت ريتا و (لوري) امامه عاريتين تماما ، فكر في أن ينـام الثلاثة معا على السرير ، ورأى أن هذه الفكرة معقولة جدا .. حتى انه اشتاق لتنفيذها ، لكنه كان يتمنى ان ينفرد

بلورى لانه كان يشعر ببعض الحرج من أن يفعل ذلك امام شقيقتها ، وهم أن يغير خطوات الرقصة الى اخرى يكون فيها أكثر التصاقا بالفتاة ، لكن في نفس اللحظة توقفت الموسيقى .

ـ هذه حماقة من حماقات ريتا .

قالت لورى ذلك ثم انسحبت من بين أحضانه ودخلت حجرة النوم ، وتبعها وهو مستاء .. وكانت ريتا تعطى الجهاز فقالت لهـــا امتها ، لمـــاذا اوقفت «الجراموفون» ؟ لقد كنا نرقص .

قلت لك من قبل انى لا أريد احداث أى صـــوت . ألم يكفك الفـــضيحة الذى أحدثته في الترام ووضعتنى في موقف حرج امام مستر بيـــكيو ، ولا أعرف كيف أواجهه بعد ذلك .

كانت الاثنتان تقفان في مواجهـــة بعضهما .. الصغرى عارية تماما .. والاخرى لاترتدى سوى السروال .

ـ وماذا يعنينى من مستر بيكيو هذا ربما يكون قد خدع فيك ، ولم يعرفك على حقيقتك .. لم يعرف انك تخرجين لاصطياد الرجال .

ـ ولكن ماذا فى ذلك !

ـ انا يهمنى ، ومع ذلك فان ماتقولينه غير صـــحيح ، فأنت التى تصطادين الرجال في ميلانو .

ـ ومـــاذا تفعلين انت هنـــا بحق السماء ؟!

ـ دعك مما افعله ، لكن تذكرى فقط انك مادمت في بيتى فيجب أن تحترمى التصرف .. يكفى انك هذا المساء قد وضعتنى في موقف محرج .. ان لبيتى حرمة .. ويمكنك عمل ما تريدين هناك في مقصدك الخاصة ، لكن أرجوك ألا تفعليه هنا .

ـ حرمة البيت .. هه ؟

ثم انفجرت ضاحكة وامتقع وجههـــا غضبا وواصلت كلامهـــا انا لاأود البقاء في بيتك النجس، يجب أن أذهب حالا .

ـ هيا انصرفى ، فسيسعدنى ذلك ، قالت ذلك في صوت أقل حدة .

ـ سأذهب حالا ، لاتخافى .

قالتها بغضب ثم انتزعت ثوبها من الكرسى ،واخذت ترتديه بسرعة .

ـ اذهبى اذن ، لكنها كانت في نفس الوقت تقاسى من قرار أختهـــا بترك البيت .

ـ سأذهب لكنك لن تريانى ابدا ..

ثم سحبت من خلف الدولاب حقيبة جلدية ، وفتحت أحد الادراج وبدأت تضع ملابسها فيها كيفما اتفق ، فقال جياكومو

ـ تعالى الآن .. تعالى .. تعالى .

قالت وهى تدفعه دعنى وحدى .

ـ بقدر ما أنا سعيدة ،لكننى أريدك أن تذهبى .

قالت ريتا ذلك ، لكن رجلها لم يكن يعبر عما تقول .

ـ لا تخافي ، فانا داهية عن بينك القدر .

ـ اخرجي الان ، وبأسرع ما يمكن .

ولم ترد عليها الصغرى في هذه المرة ، بل انحنت على حقيبتها لتحزمها واستمانت في ذلك بركبتيها ، ومرت بقضيب من بين حباكومو واختها واحدث قيمة مركشة من الشماعة ، ثم خرجت مسرعة من الحجرة، وتادتها أختها يأس لكن لم يأت جواب ، بل اعترت الشقة من صفعة الباب الخارجي الشديدة ..

وجلست ربنا على حافة الفراش واضعة رأسها بين يديها ، وتطور الامر بسرعة دون أن يفيق جاكومو من اعتقاده بأنه قد نجح في مغامرته ، ولم يعد أمامه الا أن ينهي الامر بالنهاية السعيدة .. وكان مارال واثقا في نفسه كل الثقة ، رغم أن زعماءه قد زالت.. وأحس بغصة الفشل وخيبة الأمل .. ونظر الى المرأة الجالسة على حافة الفراش في سروالها الأسود التي كانت منذ لحظات مستعدة لخوض التجربة معه ، لكنه لمح دموعا في مقلتيها .. وكان صوتها مرتجفا وهي تقول

لو علمت ما فعلت من أجلها ! حين كانت طفلة صغيرة وانا كنت في السادسة عشرة .. كنت أعمل لأجولها مادا كان مصيرها بدوني ؟ لقد صحبتها الى المصايف واشتريت لها الملابس وكل شيء .. وحين كبرت أرحلت لها عملا كمؤديل .. وطوال هذه السنوات كنت

احرم نفسي من كل شيء لأرسل اليها النقود ، والآن هل ترى كيف تعاملني ؟

وهزت رأسها ونظرت اليه من تحت حفنيها المتدليين ، وضاعت من عينيها تلك النظرة الخليعة فقال لها «جياكومو» وهو يجذبها لتجلس بجواره : تعالي ، تعالي ، ثم أمسك بيدها واضاف : لا بد انها ستعود .

ـ لا ، بل انها لن تعود ، فانا أعرفها واعرف انها لن تعود ـ على الاقل ـ قبل مضي عشرة طويلة ، بل في الحقيقة انها لن تعود على الاطلاق .

وجعلت منديلا من تحت الوسادة وأخذت تنشف أنفها ، وفكر هو في ان يقترح عليها ان يستمرا وكان شيئا لم يكن وكان هو يعلم انها ستوافقه رغم دموعها وحالتها المضطربة ، لكنه تراجع لانه كان يعرف انها ستأتي بحركات حزينة غير مناسبة ، ولم يعد أمامه الا ان ينهض ويقول : اعتقد اني

ـ لن أجبرك على الانتظار ، فان حالتي سيئة جدا .. هل رأيت معاملتها الشريرة .. الماكرة للعميل !

قالت ذلك ، ثم دخلت الى الردهة ، وتبعها هو ، وعلى الباب احتواها بين ذراعيه وقبلها ، وردت عليه بقبلة كأنها عرفان بالجميل وقالت له : انني آسفة جدا .

ـ دعك من هذا .

ولما خرج «جياكومو» الى الشارع ، تلفت حوله ، باحثا بعينيه عن «لوري» ، لكنه لم ير الا مساحة من الاسفلت الاسود ، وصفين من اعمدة النور ... والمساكن المظلمة .

وقال في نفسه : وهكذا ضاع يوم آخر .

ثم سار في اتجاه النور .